

هفتري برجسته
(۱۸۵۹ - ۱۹۴۱)

هنري برجسون (١٨٥٩ - ١٩٤١) (١)

تعتبر فلسفة برجسون رداً حاسماً على «اشاع» في أوروبا في القرن التاسع عشر من إغراق في المادية ، ومن اتجاه تام نحو العلم والملاحظة والتجربة . ومن تعويل مطلق على ثمرات هذا العلم وتقديس لنتائجه ، حتى أوشك هذا

(١) من أعظم الفلاسفة المعاصرين . درس الفلسفة في مدرسة المعلمين العليا بباريس وحصل على درجة (الأجر يجاسيون) . وشغل منصب أستاذ الفلسفة بالمدارس الثانوية من سنة ١٨٨١ . وفي سنة ١٨٨٩ حصل على درجة الدكتوراه من السربون في بحث فذ يمد أساساً لفلسفته . هو (بحث في وقائع الوجدان المباشرة)

(*Essai sur les données immédiates de la conscience*) ولم يققه اشتغاله بتدريس الفلسفة بالمدارس الثانوية عن القراءة والبحث والتأمل والتأليف . ففي سنة ١٨٩٧ نشر كتاب (المادة والذاكرة - بحث في العلاقة بين الجسم والعقل) وفي العام التالي عين أستاذاً بمدرسة المعلمين العليا وظل يحاضر بها إلى سنة ١٩٠٠ (*Matière et Mémoire : Essai sur la relation du corps et de l'esprit*) حيث شغل كرسي الفلسفة في السكوليج دي فرانس . وكانت محاضراته بها تجذب جمهوراً غفيراً من الفلاسفة والعلماء والشباب المتطلع إلى المعرفة المتوب للنهم الحسي الناضج . وفي العام نفسه صدر كتابه عن الضحك - بحث في دلالة الفكاهة .

(*Le Rire-Essai sur la signification du comique*)

وفي سنة ١٩٠٧ ظهر كتابه (التطور الخلاق) *Evolution Créative* فأحدث هذا الكتاب ضجة كبرى في الأوساط العلمية والفلسفية .

وقد نشر برجسون إلى جانب ما ألف من كتب بحوثاً في المجلة الفلسفية *Revue philosophique* وفي مجلة الميتافيزيقا والاخلاق

Revue de Métaphysique et de morale

وساهم كذلك في تحرير المصباح الفلسفي *Vocabulaire philosophique* الذي كان يعرف على إعداد العلامة (لاند) ومن كتبه الأخرى (منبع الأخلاق والدين)

Les Deux sources de la Morale et de la Religion.

مات برجسون سنة ١٩٤١ بعد نشاط إنساني عقلي فذ . وقد كان كما قال فاليري فيلسوفاً عظيماً وكاتباً كبيراً وصديقاً للناس جميعاً . بذل حياته مؤدياً رساله ساعياً من أجل ترحيب العقول مجاهداً من أجل الإجماع على مثل عليا كان يعتقد مخلصاً أنها ينبغي أن تسبق كل قيمة لسلطة سياسية . أنظر ص ١ - ١٠ من

André Cresson : Bergson, sa vie et son œuvre. Paris 1955.

وراجع أيضاً ص ٣٥ - ٦٧ من *J. Chevalier : Bergson* (*Paris 1932*)

الاتجاه العلمى أن يغطى على كل تفكير روحى . رمن هنا نرى فلسفة برجسون تؤدي دوراً عظيماً فى تلك الفترة التى ظهرت فيها .

وبرجسون صاحب فلسفة التطور الخالق *Evolution Créatrice* ، وفلسفته جانبان ، أحدهما سلبى يتجه فيه إلى نقد أصحاب النزعة العلمية ، والآخر إيجابى يتجلى فيه المنهج الجديد الذى يتقدم به ، أعنى المنهج الحدسى ، ويعرض فيه نظريته فى الحرية وفى الأخلاق والدين ، ولأكتفى سنقتصر فحسب على ما يعيننا فى دراستنا للمعرفة .

حسبنا أن نشرع فى تقريب نقطة البدء فى تفكير برجسون إلى الأذهان : لتتخيل مصوراً سينمائياً يوجه آلهة يمته ويسرة ليلتقط منظرأ من مناظر رواية ما ، تجرى فيه أحداث وحركات . فماذا يسجل الفيلم ؟ يسجل صوراً متعددة لو نظرنا إليها فى ذاتها كل منها على حدة لتبيننا انعدام الحركة فيها . بيد أن هذه الصور عينها تتيح لنا حين نعرضها فى حركة متواصلة وفى سرعة خاصة أن نرى المنظر على ما كان عليه فى الأصل ، أن نسمع حديث الممثلين ونشاهد حركاتهم وإيماءاتهم . ولكن هذه الحركة التى نشاهدها على الستار الفضى ونتابعها بشغف ، حركة واهمة لأن الحركة فى الحقيقة ليست منطبعة على الفيلم ، فالفيلم لا يضم إلا سلسلة من الصور كل منها جامد لا حركة فيه . فآلة التصوير أسجلت ولكنها تعجز عن الاحتفاظ بالحياة القائمتين فى الطبيعة . كذلك شأن العقل البشرى ، فالعقل إذ يواجه الأشياء فى حركتها المتصلة وتطورها المستمر يحاول أن يقطعها قطعة قطعة ويعزلها عن الحركة لىكى تنهأ له دراستها . فكأن العقل البشرى ينزع من الأشياء حيويتها

الطبيعية . وهدف العقل من ذلك دراسة طبيعة الأشياء المادية . وليس لدى العقل لكي تتم هذه الدراسة على الوجه الأكمل إلا أداة واحدة يستعين بها أغنى التحليل . فالتحليل شرط أساسي لوضوح الفكرة العلمية التي يستند إليها كل تنبؤ في المستقبل .

يرى برجسون أن أبسط إدراك للعالم يظهرنا على أنه حركة مستمرة دائمة في كل مماسك . ولكننا حين نحاول دراسة هذا الاستمرار أو هذا الاتصال نركز انتباهنا على نقط معينة ونعزلها عن سائر النقط الأخرى ، فنحن إذن نحاول أن نتحكم في طبيعة الأشياء فنفصل ما هو متصل ، ونفترق ما هو مرتبط . ونحن في دراستنا للعالم نتبع هذا المنهج لكي نحقق منافعنا العملية فتغيب عنا أعمق فكرة وهي فكرة الحياة المتدفقة . ولكن العلم وقد قطع أشواطاً بعيدة في التقدم يتبع مناهج راسخة قوية ، ومشاهدات العلم الخارجية مشاهدات تحليلية فهو يعتمد على التفسير والتجزئ إلى ذرات وإلكترونات . وقد تغالى العلماء في نزعة التحليل هذه وبخاصة علماء النفس أصحاب مذهب التداعي وكذلك علماء الاجتماع الآخذون بالحتمية .

إن عقلنا يمثل لنا عالماً جزأه إدراكنا وقطعه تفكيرنا إلى قطع صماء جامدة ليس بينها وبين حقيقة الواقع إلا شبه ضئيل ، مثلها في ذلك مثل الصور المثبتة التي يشملها الفيلم السينمائي ، إذا قيست بحركة الممثلين الذين سجل الفيلم مناظر لهم . ويرى برجسون أن عقلنا يستعين في هذه العملية بأداتين ، الأولى تمثل المكان *Représentation de l'espace* والثانية هي اللغة التي نعبر بها عن أفكارنا . فنحن باعتمادنا على هاتين الأداتين

نحاول أن نملك الأشياء في قبضة يدينا ، فكأننا بهذا نحول بين هذه الأشياء وبين تدفقها الطبيعي ، شأننا في ذلك شأن المولع بجمع الفراشات يخطبها ويثبتها على لوحة يحتفظ بها .

لكننا لو توخينا التعمق في تأملنا للأشياء لتبيننا أننا نفكر بطرائق متعددة : فلو أننا أخذنا مثلاً سلسلة تشمل ا ، ب ، ج ، د ، هـ . لرأينا أنه يمكننا في تأمل هذه السلسلة أن نتبع ثلاثة وسائل :

الأولى : أن نتمثل ا ، ب ، ج ، د ، هـ . حينئذ نكون قد تأملنا عناصر هذه السلسلة ، دون أن تجتمع لنا صورة متكاملة لهذه السلسلة عينا .

والثانية : أن نضع هذه الحدود ا ، ب ، ج ، د ، هـ جنباً إلى جنب ونستعرضها في نظرة شاملة ، فثمئذ تنهينا لنا فكرة السلسلة ذاتها ؛ ولكن هذه الفكرة أعني فكرة السلسلة مجموعة لن تنهينا لنا إلا إذا وحدنا بين العناصر جميعها .

والوسيلة الثالثة : هي أن نعيش في هذه السلسلة نفسها ، ونحاول أن نتابع حيوية هذه العناصر المتكاملة ا ، ب ، ج ، د ، هـ ، نحاول أن ندخل شعورنا في تيار هذه العناصر ذاتها . وما أشبهنا في ذلك بمن يستغرق منصتاً إلى مقطوعة موسيقية . فبالرغم من تعدد الأنغام فيها واختلاف الخيالات التي تطوف بنا في ثناياها ، هنالك وحدة قوية تربط عناصر هذه المقطوعة برباط وثيق يتيح للمنصت أن يعيش في هذه الوحدة

أى فى اللحن بأسره ككل . ولا ريب أن هذه الوسيلة الأخيرة أو هذا المنهج الأخير الذى تتبعه هو أصلح المناهج لفهم طبيعة الأشياء وإدراك حقيقتها .

وينقد برجسون موقف العلميين من فهم الطبيعة ، فهو يرى أننا لو شئنا بعقلنا أن نفهم فى وضوح وجلاء طبيعة هذه السلسلة من الأحداث ، لكان لا محيص لنا عن الاستعانة بفكرة المكان ، فننظر لحركات هذه السلسلة على أنها مترابطة قائمة فى خط متصل . فلا بد للإنسان لى يتصور شيئاً أن يكون هذا الشيء قائماً فى مكان ، ولا شك أن تصور المكان أمر رئيسى جوهرى فى كل تفكير (١) .

هذه الفكرة عن المكان تنطوى على معنى رياضى ، ويستلزم هذا المعنى الرياضى معنى رياضياً للزمان ، فتتصور الزمان كذلك على أنه سلسلة من اللحظات تسلم كل منها إلى الأخرى . فكما أننا نتصور المكان تصوراً رياضياً على أنه نقط تشغل حيزاً ، فتصورنا للزمان على هذا النسق هو أنه لحظات تتعاقب فى المكان . ففكرة الزمان وليدة فكرة المكان . ومن ثم يقرن تصور الزمان بتصور الحركة ، فالزمان الرياضى نقط تنتقل فى المكان . ولا شك أننا فى تفكيرنا العلمى نستخدم هذا التصور ونعول عليه ، وخاصة فى دراستنا للميكانيكا . ذلك لأن الحركة تعنى فى عقولنا أن هنالك متحركاً أخذ يشغل على التوالى سلسلة من النقط فى المكان .

(١) ص ٨٥ من كتاب برجسون : بحث فى وقائع الوجدان المباشرة) و ص ٢١١ و ٢١٣ من كتابه (المادة والذاكرة) وكذلك ص ٣٢٣ - ٣٢٧ من كتابه (التطور الخلق)

ويرى برجسون أننا في هذا النحو من التفكير نقوم بعملية بلورة
للمتحرك *Cristallisation du mouvant* أى عملية إماتة . ونحن لا نفكر
تفكيراً علياً واضحاً إلا إذا صغنا أفكارنا في قضايا تحليلية تشمل موضوعاً
وأداة ومحمولاً ، وتدل على ما بينها من علاقات . هذه الصيغ التي نحاول أن
نصب فيها ما وصلنا إليه من علم صيغ جامدة مصطنعة تخفي وراء ثباتها حركة
متصلة وصيرورة *devenir* دائمة وتغيراً خالصاً . هذه العملية التي يقوم
بها نشاطنا العقلي هي التي ينبغي أن نوجه إليها انتباهنا . ذلك أننا
لو نفذنا إلى ما وراء هذه الصيغ لوصلنا إلى أعماق تلك الحركة المتصلة
القائمة في الأشياء .

مهمتنا إذن أن نتعمق هذه الحركة كفلاسفة ندرس فيها وراء الظواهر
حتى نصل إلى المطلق . علينا أن نعني بالحياة نفسها . وسبيلنا إلى ذلك لا
الإرتكان إلى العقل وإنما الاعتماد على الحدس *intuition* (١) .

الحدس البرجسوني .

في الحدس نتحرر من كل نزعة إلى التحليل ، وإلى فك المركبات إلى
عناصرها . والمعرفة الحدسية تكمن في المتحرك وتحتضن حياة الأشياء
ذاتها ، فتصل بنا إلى المطلق . فالمعرفة العلمية التي تعتمد على دراسة المادة
معرفة رمزية لأنها توقف الأشياء في حركتها فتأملها وتستخلص القوانين

(١) ينبغي أن نفرق بين الحدس عند ديكارت والحدس البرجسوني ، فالحدس
الديكارتي رؤية عقلية مباشرة بينما الحدس البرجسوني رؤية وجدانية . إن صح هذا التعبير .
أنظر ص ٦٠ - ٦٢ من هذا الكتاب .

التي تسير بمقتضاها متوسلة بالمشاهدة والتحليل والتركيب . وهذه المعرفة العلمية معرفة مادية نسبية تؤمن بالجمعية وتطبقها في جميع المجالات من طبيعية ونفسية . ونحن لا سبيل لنا إلى استكناه طبيعية الحياة إذا اعتمدنا على هذه المعرفة . فلا بد لنا من معرفة أخرى تمكننا من هذا الفهم ، وتلك هي المعرفة الحدسية . ونحن بالحدس ندرك المطلق ونفهم الحياة في أعماق معنى لها .

نحن هنا إزاء إحساس بالنفس وهي تنبض بالحياة . إننا نتبع النفس في تموجات حركتها وتدفق حالاتها . نحن هنا أمام نمط من التجربة المباشرة له صبغة كلية شاملة للوجدان فيها الغلبة على العقل . إن كل من يتأمل في نفسه متحرراً من التحليل مستغنياً عن وسائل العلم المألوفة ، يمكنه أن ينطلق إلى الوجود المطلق الذي نجده في أنفسنا كما نجده في جميع الأشياء . والحدس ليس بمثابة امتلاك المرء لوجدانه فحسب *prise de conscience* وإنما هو أيضاً تعاطف عقلي *sympathie intellectuelle* تعاطف نفاذ *sympathie divinatrice* يفتح لنا مغاليق الموجودات الأخرى مثلاً يكشف لنا عن مكنون نفوسنا .

تلك تصورات تلوح لنا غامضة مصطبغة — رغم ما فيها من جمال — بصبغة الاستعارة والكناية ، ولكننا مانكاد نتعمقها حتى يتضح لنا مقصد برجسون الحقيقي . ذلك أننا ينبغي أن نفطن إلى تلك الحقيقة الهامة ، وهي أنه يرى أن ثمة تياراً متصلاً وأمواجاً متدفقة قائمة دون ما انقطاع في جميع الموجودات بحيث أن من يعرف نفسه معرفة وثيقة يعرف في الآن ذاته كل شيء معرفة وثيقة أيضاً .

هذا هو الاتجاه الجديد الذى يحمل لواءه برجسون . وهو يرى فى كتابه «وقائع الوجدان المباشرة» . ان هذه الوقائع تيار متدفق من ظواهر متنوعة . ولكن هذا التيار لا يتألف من كميات ، فإن هذا أبعد ما يكون عن تصوير برجسون ، بل ينتظم حلقات مرتبطة من الكيفيات . وعلى ذلك فظواهر الشعور أو وقائع الوجدان تختلف اختلافاً بيناً فى طبيعتها عن الظواهر المادية (١) ، ذلك لأن الظواهر المادية لا تعدو أن تكون عدداً كبيراً من الأحداث يميز بعضها عن البعض الآخر ويعقب بعضها البعض الآخر . أما الحياة النفسية فهى تلقائية خالصة *Pure Spontanéité* . وتنطوى هذه التلقائية على خلق مستمر . والحياة النفسية إن هى إلا ديمومة *Durée* ، وصيرورة *Devenir* . وهذه الديمومة لا تخضع للاحتتمالات التى تخضع لها الظواهر المادية . من قبيل تلك الاحتمالات مثلاً ، أننا فى الظواهر المادية نتوقع المستقبل توقعاً حتمياً . الحياة النفسية كيف بحث مباين مباينة تامة لطبيعة الكم . وإضافة الكم إلى الظواهر النفسية إنما يأتى من أننا قد اعتدنا أن نقرنها بالظواهر الجسمية التى تصاحبها . هذه الظواهر الجسمية ذاتها هى التى تخضع للقياس .

القياس *mesure* فى صميمه انطباق مكان على مكان . ومن ثم كان العلم يعتمد على القياس ويتوخى الدقة الرياضية . ذلك أن العقل بطبيعته ميال إلى القياس ، ومجال ذلك المكان والمادة . ومن هنا نرى أن عقلنا يحاول تطبيق المنهج ذاته على النفس ، فنتخيل أن حالاً لنا الباطنة منفصلة

(١) أنظر ص ١٧١ من (بحث فى وقائع الوجدان المباشرة) .

ومرتبطة على طول خط ، وننقل بالتالى الألفاظ الدالة على ماديّات إلى معنويّات ، فيترتب على ذلك وصف الظواهر الوجدانية بالشدة والضعف والمقارنة بينها على هذا الاعتبار .

التطور الخالق Evolution Créatrice

إن تأملنا للعالم — كما يرى برجسون — يجعلنا نستشف كثيراً من الحقائق . فنحن نلاحظ أنه منذ عهد بارميدس وزينون الإيلي من ناحية ومنذ عهد هرقليطس من ناحية أخرى ، وفلاسفة الميتافيزيقا يتجهون اتجاهين .

١ — ميتافيزيقيون يرون أن الوجود ثابت وينفون عنه الحركة ، ويذهبون من ثم إلى أن لا شيء ينجم عن لا شيء وعلى ذلك فلا شيء يتم فيه تحول أو يطرأ عليه تغير . واستخلصوا من ذلك كله أن التعدد بالحركة والتغير لا يعدو أن يكون مظاهر أو أوهاماً .

٢ — أما الفريق الآخر من الميتافيزيقيين فقد وجهوا عنايتهم إلى ما فى العالم من تغير وتحول وصيرورة — بعبارة برجسون — ، وكأنهم يرددون مع هرقليطس عبارته المشهورة : « ليس فى وسعك إن تنزل النهر مرتين فإن مياهها جديدة تجرى من حولك أبداً » فليس هنالك إذن وجود بالذات وإلما الظواهر هى الوجود بالفعل ، نستبين فيها التغير أو الصيرورة . فالواقع الذى نشاهده يتمثل فى الصيرورة .

فما موقف فلسفة حدسية كـفلسفة برجسون ؟ .

إن الحقيقة الواقعية ليست هي الوجود وإنما هي ديمومة خالصة هي
صيورة بحتة . ثمة تيار ينتظم كـيفيات أشعر به ونتوقعه ونترقب الأحداث
فيه . هذا التيار متدافع يتطور دون توقف ، وكل جديد فيه خلق وإبداع .
الحقيقة الواقعية إذن في نظر برجسون هي التطور *Evolution* بيد أن
حقيقة التطور هذه قد سبقه إليها من قبل لامارك *Lamarck* وداروين
وسبنسر وغيرهم من الأعلام . إلا أن هؤلاء انصرف همهم إلى
إلتماس تفسير آلى لا يكون . ففسروا تكوين الأفراد على اختلاف أنواعها
وتكوين الأنواع المعروفة من نباتية وحيوانية ومعدنية ، تفسيراً مادياً .
نلاحظ ذلك في فلسفة لامارك الحيوانية . وتنطوى هذه الفلسفة على
النظرية القائلة بأن فعل البيئة وتكوين الأعضاء بمقتضى الوظائف ووراثـة
الخصائص التي يكتسبها الأفراد والتي كانت أصلاً عادات انتقلت من جيل
إلى جيل ؛ هذه العناصر جميعها هي التي يمكن على ضوءها تفسير ما هنالك
من تنوع واختلاف بين أنماط الموجودات . إلى هذا يتجه أيضاً كتاب
داروين في أصل الأنواع ويزودنا هذا الكتاب بنظرية تتصل بالتنوع
والوراثـة والتنافس بين الكائنات الحية ، وهي التي تؤدي إلى تحقيق قانون
الإختيار الطبيعي الذي يقضى على الكائنات التي تعجز عن التكيف
بالبيئة ، ولا يستمر في الحياة تبعاً لهذا إلا كل كائن تحقق التلاؤم
بينه وبين البيئة . وسبنسر يطبق كذلك قانون التطور في مجالات
متعددة في عالم الأفلاك وعلم الحياة وفي النفس والمجتمع .

ويشتمل التطور عند « سبنسر » فيما يتم من تلاؤم مادي وفيما ثمر به الظواهر المختلفة من طبيعية ونفسية واجتماعية من تغير من البسيط إلى المركب ومن المتجانس إلى المتخالف . وهذه العمليات جميعاً تتم في نظر سبنسر بطريقة آلية ينطبق عليها قانون الحتمية الآلى . وسبنسر يعتقد أن أصل الأشياء الأول ومصيرها أمر مغلق لا سبيل لنا إلى معرفته وسوف يظل دائماً مجهولاً لنا .

و « برجسون » يرى أن هؤلاء الفلاسفة جميعاً قد توصلوا إلى حقيقة لا جدال عليها ، أعنى التطور . ولكنه يرى أنهم ضلوا السبيل مع ذلك ، فإن المبادئ الميكانيكية والمسلمات الآلية التي نصادفها عند « لامارك » و « داروين » و « سبنسر » تعجز عجزاً تاماً عن تفسير التطور في العالم ، ذلك لأن هؤلاء الفلاسفة قد أنصب همهم على دراسة المادة فحسب فلم يكن في وسعهم أن ينفذوا إلى لب التطور . (١)

و « برجسون » يرى أن التطور ينبثق عن « وثبة حية » *elan vital* هي أشبه ما تكون بانبثاق الحياة وتدفقها . ففي أنفسنا وثبة حية تتمثل في رغبتنا في الحياة وتطلعنا إلى الجديد ، تلك الحياة التي تشبث بها كل لحظة ونحاول أن نفلت من الموت ، الموت الذي يلاحقنا ويكاد ينقض علينا لولا ما نبذله من جهد لا شعورى منتظم في التنفس والتغذية .

(١) ارجع إلى ص ١٢٦ - ١٤٤ ، ١٥٦ - ١٥٧ من كتاب برجسون (التطور الخالق)

هذه الوثبة الحية تتميزها في كل شيء . ألسنا نرى أن الأحياء جميعاً يناضلون دون ما انقطاع لتأدية أفعال لا يمكن بدونها أن يستمر لهم بقاء ولا أن يزدهر لهم وجود ولا أن يتجدد لهم أمل ؟ أليس في هذا وجه شبه بين ما يقول به « برجسون » وما يذهب إليه « اسبينوزا » من نزعة الكائن الحي إلى المحافظة على بقائه ؟

مهمتنا أن نتأمل في نشاط هذه الوثبة الحية ؛ فكل شيء يمضي وكأن حاجات الكائنات تتجدد ، فما يتحقق بعضها حتى تواصل السعي إلى تحقيق غيرها ، هذا المجهود نفسه ، هذا المجهود التلقائي كما يقول برجسون يقهر ما يواجهه ؛ ويقضى على ما يقف في طريقه . في هذا المجهود ابتكار وخلق وإبداع ، فالحياة في صميمها ابتكار وخلق وإبداع ، وطالما ظل هذا الخلق قائماً اتصلت حياة الأفراد وازدهرت حياة المجتمعات . فأهم طابع للتطور في نظر « برجسون » هو الخلق أو الإبداع ، فما مقصده من هذا ؟

إن الحياة تحقق التوافق بين أعضاء بدنية و غرائز واستعدادات عقلية . وهذه جميعاً تعين الحياة قطعاً على الاستمرار وعلى الانتشار في صور متعددة ، هذا الإنتاج الضخم إنتاج رائع ولكنه ليس ثمرة الحتمية العمياء كما يذهب أصحاب النزعة العلمية . إن الوثبة الحية تعمل في حرية تامة وفي تلقائية خالصة ، وهذا ما يحقق الخلق والإبداع .

ليس التطور إذن وليد الصدفة ولا ثمرة الآلية وليس التطور نابعاً من وراثته خصائص يكتسبها الكائن أصلاً بالعادة . وإنما التطور يتم دفعة واحدة على قفزات مباغتة *sauts brusques* . التطور ينجم من الياطن

ولا يأتي من الخارج . ينجم من هذه الدفعة الباطنية التي تولد كل جديد وتبتدع كل طريف .

فالعقل في نظر برجسون ليس غريزة مصقولة مستكملة ، وليست الغريزة بقية موروثة من بقايا عادات الجنس البشري ركزت في الافراد على مر الأجيال . إن الإنسان والحيوان لا يقفان على خط واحد في التطور . فالطبيعة قد زودت الحيوان بالأدوات الضرورية التي لا غنى له عنها في حياته وإنتاجه ، فأمدته بالتالي بتلك القوة التي تسمى غريزة وهي قوة نوعية بما تنطوى عليه من فطرة لا تخطيء وهي تحقق التوافق بين السكان الحي وبيئته .

ولكن الطبيعة شاءت أن تجعل الإنسان كائناً مبتكراً مبدعاً، فزودته بعقل قادر على كل شيء صالح لكل شيء . إلا أن الإنسان كثيراً ما يتعثر في مجالات التجربة وكثيراً ما يقع في الخطأ . وبين الغريزة الحيوانية والعقل الإنساني فارق طبيعي بالرغم مما نلاحظه هنالك من ظل عقلي يحوط الغريزة وظل غريزي يكتنف العقل . إن خط التطور الذي ينتهي إليه الحيوان تدينه في جماعات البشر في حركة متصلة تتطلع دواماً إلى ما هو أكمل .